# إدوارد سعيد

أثرٌ في العالم... وفينا

# مـــفكِّرٌ ناشطٌ من طراز جديد

□ إلياس رشماوي

## المهاجم الشرس يتحوّل تلميذًا

كان قد قدَّمَ نقدًا لاذعًا عن المستشرقين، خلال محاضرة لحشد كبير من الطلبة والأساتذة حول «أوبرا عايدة» لڤيردي. كان ذلك قبل حوالى ١٨ عامًا، في جامعة كاليفورنيا ـ ديڤِسْ، حيث كنتُ طالبًا في قسم مصادر المياه، ومنسِّقًا للاتحاد العامّ لطلبة فلسطين، وعضوًا في منظمة محلية للطلاب الأجانب يتمحور نشاطُها حول مناهضة الاستعمار والعنصرية بكافة أشكالهما.

في ذلك الحين، كنتُ أرى إدوارد سعيد من خلال عدسة فلسطينية بحتة، اكتسبتْ معالمَها من تناقضات المرحلة ـ وكانت على أشدّها. وكان هذا المفكر والناشط العالميّ يغوص في خضمّها، يؤثِّر فيها ويتأثَّر بها: جزءًا من المعضلة السياسية الفلسطينية والأزمة البرنامجية التي أخذتْ تتبلور بتسارع شديد.

كنتُ أحدَ النشطاء ضدّ التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، وأحدَ المدافعين عن حقّ الشعوب في تقرير مصيرها غير المنقوص. وكنتُ أقضي معظم أيامي بين مركز الصحيفة الأسبوعية الجامعية التقدمية ـ **منبر العالم الثالث** ـ وبيتٍ خشبيّ رمزيّ بنيتُه مع طلابٍ آخرين وسط الجامعة، إشارةً إلى معاناة سكان جنوب أفريقيا الأصليين. وكغيري من الشباب الفلسطينيّ والعربيّ التقدُّميّ كنتُ ـ ومازال ـ أرى فلسطين ركنًا أساسيًا من الحركة العالمية المناهضة لهيمنة الاستعمار واستبدادِ إمبريالية الغرب. ومن هذا المنطلق السياسيّ كان لقائي الأول بسعيد.

كنتُ متحفِّزًا لأحاوره عن «اتفاق عمّان» الذي أُبرم في شباط ١٩٨٥ بين الملك حسين وعرفات، وعن الدورة السابعة عشرة للمجلس الوطنيّ الفلسطينيّ التي عُقدتْ في العاصمة الأردنية في تشرين الثاني عام ١٩٨٤، وعن مبادرة أو مشروع ريغان الذي جاء في أعقاب قمة فاس. كانت تلك مرحلةَ صراعٍ داخليّ فلسطينيّ، ومرحلةَ تناقضات دولية واصطفافاتٍ لم تتّضح معالمُها وإفرازاتُها الكارثية إلاّ مؤخَّرًا.

جاء لقائي بسعيد عاصفًا من الناحية السياسية، لا مكانَ فيه للحوار عن «الاستشراق» أو عن المفهوم الغربيّ للعرب والإسلام. كان لقاءَ مواجهة وعتاب: هو يحاول الإشادة بما رآه من إيجابيات في تلك المرحلة مهما كانت صغيرة، وأنا أهاجم البرنامجَ السياسيّ القائم آنذاك باعتباري سعيدًا جزءًا منه. لكنّ العاصفة سرعان ما هدأتْ بيننا؛ فقد راح يحاورني حول كيفية فهم الاستعمار ومدلولاته، وأنا أستمع إليه مبهورًا. وما إنْ جاء وقتُ حفل تكريمه ذلك اليوم حتى انصبّ الحوارُ الهادئ على غرامشي (المفكّر الشيوعيّ العملاق) وكتابات فرانز فانون وكابرال، ووصلْنا إلى نقدِ أطروحةِ كارل ماركس حول نمط الإنتاج الآسيويّ ووضعيةِ ذلك في مفهوم «الاستشراق.»

أما كيف تحوّلتُ، أنا المهاجمَ الشرسَ، ذلك اليوم إلى مُحاورٍ وتلميذٍ لإدوارد سعيد، وكيف انتقلنا من الخصوصية الفلسطينية التي باعدتْنا واحدَنا عن الآخر في ذلك الوقت إلى العمومية العالمية حيث تقاربنا كثيرًا، فتلك هي سمةُ العلاقة الفكرية مع هذا الناشط من طراز جديد.

بعد حوالى أسبوع ـ على ما أعتقد ـ جاء الاجتماعُ الأولُ للطلبة النشطاء سياسيًا في تلك الجامعة لتقويم زيارة إدوارد سعيد وما نشرناه من مقابلة أجريتُها معه على صفحات **منبر العالم الثالث**. كان الجميع ينتظر منّي هجومًا سياسيًا كاسحًا على إدوارد بسبب معرفتهم بموقفي السياسيّ من برنامج القيادة الفلسطينية في ذلك الوقت. وعندما جاء دوري، وبيَّنْتُ اعتزازي الشديدَ به ـ المرتبطَ جدلاً بخلافي الجذريّ مع موقفه الفلسطينيّ في ذلك الحين ـ جاء هذا الرأيُ معبِّرًا عمّا كان يدور في أذهان معظم الطلبة. وبدأت الرحلةُ مع إدوارد سعيد، هذا المفكّر الناشط من طراز جديد: رحلةُ تناقضٍ ولقاء... رحلةٌ لا يَجْمعنا فيها إلاّ برنامجُ العمل في الولايات المتحدة.

أَدْخل إدوارد سعيد في تناقضه مع الفئات الفلسطينية على المستوى البرنامجيّ السياسيّ نوعًا من عدم الاستقرار الفكريّ الذي يحتِّم تقويمَ جدلية العلاقة بين النظرية والبرنامج. كان ذلك أهمَّ تأثيرات إدوارد سعيد فيَّ، إذ كنتُ ومازلتُ أتساءل: كيف نَسْتنبط البرامجَ السياسية لحركة تحرُّر، برامج تعتمد على أسسٍ نظريةٍ وقراءةٍ تاريخيةٍ لا تَضْمن

الاستمرارية وحدها بل تحقيقَ الهدف أيضًا؟ إنّ هذا التساؤل في سياق ما قدّمه إدوارد سعيد فكريًا وبرنامجيًا يقدِّم حافزًا جادًا وتحديًا صعبًا للإجابة عن معضلات حقيقية في الثورة الفلسطينية. لم يتعرّض إدوارد سعيد للتناقض الطبقيّ، ولكنّه تعرّض للتناقض الحضاريّ والوطنيّ. لم يتبنَّ الكفاحَ المسلَّحَ نهجًا جذريًا، ولكنَّه تبنّى المقاومة بعمومياتها. لم يعوّل على الأحزاب السياسية لقيادة النضال التحرُّريّ، ولكنَّه شدّد على ضرورة العمل المنظّم. لم ينظِّر لحتمية عنف الضحية، ولكنَّه عرّى عنفَ الجلاد. لم يكن يساريًا بالمفهوم الكلاسيكيّ لليسار، ولكنَّه كان محاربًا شديدًا ضدّ الكولونيالية والاستعمار الحضاريّ. وهكذا فَرَضَ سعيد نفسَه عليَّ، وأنا فرضتُ على نفسي وعلى الكينونة السياسية الفلسطينية ركنًا أساسيًا من سمات المرحلة. وبعد أن استقال إدوارد من المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ وقدّم هجومَه اللاذع ضدّ أوسلو وأداء السلطة الفلسطينية، بدأت المسافةُ بين فكر سعيد وبرنامجه السياسيّ تقلّ بالنسبة إليّ. وكان ذلك مؤشّرًا على أنّ حتمية تلاقي الطرح الفكريّ مع البرنامج السياسيّ ترتكز أساسًا إلى إفرازات تناقضات النضال وحَسْمِ أطرافه. ففي وقتٍ شكَّكَ فيه العديدُ في جدوى نقد مسار «الدولتيْن» بسبب دفاع مفكّرين عمالقة كسعيد عنه، أثْبت الصراعُ أنّ النتائج لا تُحْسم بالعامل الإراديّ الليبراليّ، بل بطبيعة العلاقة بين الأطراف المتناقضة. فها نحن اليوم نرى عودةً متسارعةً إلى برنامج الدولة الواحدة ـ بأطيافه المختلفة ـ ونرى عودةً إلى نقد طبيعة الكينونة الصهيونية بعد أن ابتعد عن هذا النقد المفكِّرُ العربيُّ فترةً طويلةً كان خلالها يحاول جاهدًا أن يجد معادلةً للتعايش بين الجلاّد والضحية.

## سعيد جزء من النصّ الفلسطينيّ

جاء سعيد ليؤكّد عمليًا على ضرورة المصالحة بين البرنامج والنظرية، وعلى أنّ هذه المصالحة لها صيرورتُها التاريخية وتناقضاتُها وأطرافُها التي تتجاذب وتتباعد لا بسببٍ إراديّ ذاتيّ بل لجمل الأسباب الموضوعية المتناقضة أيضًا. يمثّل إدوارد سعيد بالنسبة إليّ تجسيدًا لهذه التناقضات، بتعقيداتها الفكرية وصعوباتها البرنامجية؛ فهو كان ومايزال مشروعًا إنسانيًا وطنيًا ذا بعدٍ عالميّ يَطْرح نفسَه في وسط الحدث التاريخيّ، يتأثّر به ويؤثّر فيه.

لم يأتِ إدوارد من خارج النصّ الفلسطينيّ، بل كان جزءًا من هذا النصّ، ولم يكن معلّقًا خارجيًا عليه، بل شريكٌ في صنعه. فهو وإنْ كان نموذجًا مبدعًا ومدرسة فكرية عالمية، كان أيضًا سياسيًا عربيًا وفلسطينيًا تحمّل مسؤوليتَه الجزئية... كما نتحمّلها جميعًا بنسبة إلى موقعنا من صُنع القرار أو النضال ضدّه. جاء سعيد ليضع نموذجًا للناشط السياسيّ الذي يعولم الإنسانيةَ ويخصِّصها في وقت واحد، ولا يَهْرب من النشاطية بحجّة ضمان النزاهة في الموقف، بل يَنْخرط فيها محدِّدًا سماتِها ومتفاعلاً معها. فالمفكّر الذي لا يحاول تغييرَ مسار التاريخ ما هو إلاّ معلّقٌ خارج الحدث ـ وهذا ما لم يَكُنْه سعيد.

رأيتُ في إدوارد سعيد عربيًا عنيدًا، ولكنْ لم أجده قوميًا كما أَفْهم أنا قوميّتي. وهكذا جاء السؤال: كيف يكون العربيّ في المهجر عروبيًا، وفي عالم العولمة مشروعَ تحرُّر، وفي بلد كالولايات المتحدة مدافعًا عن حقّه في المواطنة، وهو في الوقت نفسه ـ كما هو الحال الفلسطينيّ ـ مشروع عودة لا جدل فيه؟

تلك هي مسؤوليات المرحلة الملقاة على أكتافِ مَن انخرطوا في مشروع التحرُّر الإنسانيّ، والتحرُّر الوطنيّ، والتحرُّر الديموقراطيّ، والتحرُّر الطبقيّ، والعودةِ إلى الوطن الأم. وفي هذه المسؤوليات يأتي سعيد ليتحمّل ما في وسعه أو ما انتقاه هو من مواقف، ونأتي جميعًا ـ تمامًا كسعيد ـ لنحدِّد أيضًا موقعَنا من تلك المسؤوليات. أما سعيد، فقد حمل بعضًا منها ولم يَحْمل البعضَ الآخر. وبحمله هذا طَرَحَ عنوةً عليَّ تساؤلاً عمّن يحدِّد المسؤوليةَ الملقاة؟ وهل علينا أن نكون كالأنبياء، مثاليين في شموليتنا، نصرّ على طرح الإيجابيات لكلّ المعضلات؟ أم أنّنا أصحاب قضية ـ نَحْمل منها ما نَحْمله من مسؤولية، نَنْخرط في برنامجها ونتناقض من خلاله مع ذاتنا ومع شركائنا في الحمل؟

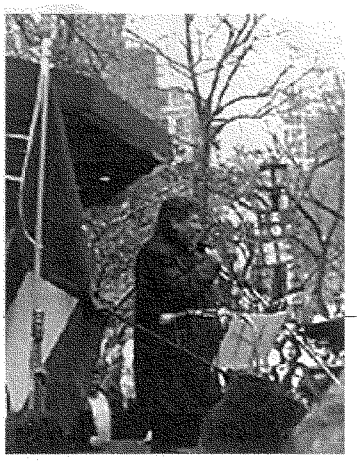

وضع سعيد نموذجًا للناشط السياسي الذي لا يَهْرب من النشاطية بحجة ضمان النزاهة في الموقف

هكذا أرى سعيد... وهكذا وجدته: صاحب قضية. لم يكن نبيًا كما جعله البعض، بل جزءٌ من شعب الأنبياء. لم يكن «هاديًا» أو «داعيًا» بل مشروعٌ متقدِّمٌ للتحرُّر، أصبح نموذجيًا في بعض سماته وأصرّ على النضال مع الذات في البعض الآخر.

لم يَنْحصر تأثير إدوارد سعيد في إسهامه النظريّ والأدبيّ الفذّ، بل اتّسع ليَخْلق طرازًا متطوِّرًا من المفكّر الناشط. فبابتعاده عن النرجسية، أَثْبتَ أنْ لا عَيْبَ على المفكّر أن يتّخذ مواقف علنية ويدافع عنها، حتى وإنْ كانت في الأقلية. وأَثْبَتَ أنّ على المفكّر العربيّ أن يَخْرج من أبراجه المسوَّرة وأن يسخِّر نفسَه لمشروع أمته ولو كان ذلك جزئيًا.

## ما يتجاوز الاختلاف والاتفاق

ليس من العيب أن نختلف مع إدوارد سعيد، بل من العيب أن **لا** نختلف معه بأن لا نراه شريكًا في مسيرة شعبنا. وهذا أجمل ما في سعيد، وأجمل ما في النضال: متعة المشقة خارج أبراج العاج، ومتعة النصر رغمًا عن أبراج العاج.

اختلفتُ كغيري مع إدوارد سعيد حول دور المؤسسات العربية في الولايات المتحدة، واتفقتُ معه أيضًا كغيري حول دورنا في هذا النظام العالميّ المستبدّ. ليس المهمّ ما اتفقنا أو اختلفنا عليه فقط، بل الأهم أنّ سعيدًا كان في معركة التناقضات، حتى اليوم الأخير، يشارك في القرار ويصنعه بدلاً من أن يكون معلّقًا عليه وخارجه.

نعم. قدّم لي إدوارد وللملايين من النشطاء مساهماتٍ نظريةً نوعيةً، وحَثَّنا على تقصّي النظرية وتوسيع مساحة الحوار. هذه حقيقة. ولكنّ خصوصية سعيد هي أنّه جعل من نفسه مشروعًا وطنيًا ومشروعًا فكريًا يَخْدم الأمة كما يرى هو، بغضّ النظر عن الاتفاق أو الخلاف معه. وهذا تمامًا ما جعله مقرَّبًا إلى قلوب الملايين.

وكيف ننسى عودتَه من المستشفى وإصرارَه ـ متعبًا ومنهكًا ـ على أن يقف في مسيرة العودة الثانية في نيويورك ليكون جزءًا من الحدث؟ أو كيف ننسى رجمَه بحجرٍ لجيش الاحتلال الإسرائيليّ، أو رجمَه بقلمٍ لجيش الاحتلال «الحضاريّ،» أو مشاركتَه في القرار... مخطئًا أو مصيبًا!؟

الإنسان قضية ـ كان وسيبقى.

**ديفس**

**إلياس رشماوي**

ناشط فلسطيني عربي. عضوٌ في الهيئة الإدارية لتحالف أنْسر A.N.S.W.E.R، ونائبٌ رئيس الحملة العالمية ضدّ العدوان الأميركي على العراق، ومتحدّث باسم «تجمّع فلسطين الحرّة في الولايات المتحدة.»